قبل العبور وبعده ...

نمدد اسماعيل في ظل دوحة باسقة ، تحميه من ضوء القمر . كان النهر الخالد ، نهر التاريخ ، يلتمع في ضوء البدر ، وحوله سكينة تامة ، لا يكدرها غير نقيق الضفادع وصرير الجنادب ، لا لعلعة طلقات ، ولا دوي انفجارات ، لا من قريب ولا من بعيد .

هدأ اسماعيل واستكان ، عندما هبت نسمات رطبة رخية ، وشعر بسرور ونشوة ، بشعور رجل موفور الصحة متين البنيان . لقد ودع سلمى قبل اربعة ايام ، بعد ان كانا طيلة ستة اشهر لا يفترقان. كانت تحمل كلاشنكوف مثله ، وترتمي الى جانبه عند الراحة ، وتصغي الى ألحان شبابته التي صنعتها يده من غاب النهر ، ونمقتها انامله، وما كان أمهره في العزف ...

وكانت نصيرة ذات قيمة ، عند المفاجأة . أبصرا يوما سيارة دورية للعدو عن بعد ، فوضعا خطة محكمة لنسفها ، فقد أسرعت سلمى الى نقطة بعيدة عنه ، وقدحت بصيصا ، واصطنعت أصواتا لفتت انتباه من في السيارة ، فتوجهت ناحيتها على الفور ، واتجهت اليها أنظار من فيها ، وانصب انتباههم كله على الهدف ، مما هيأ لاسماعيل فرصة طيبة لمهاجمتها من الخلف ، وزرع قنبلته في وسطها تماما ، فنسفها مع من فيها .

وانضمت اليه سلمى ، ومضيا يتفحصان الضحايا . كانوا أربعة أنفار في سيارة جيب ، ووجه اسماعيل مصباحا الى أحد الضحايا ، واصبعه على زناد سلاحه ، لما رآه حيا ، وكان يتأوه ، وسمعه يطلب ماء ، ونيران السيارة المحترقة تكاد تصل اليه ، فسحبه بعيدا ، وسمعه يئن ، ويطلب ماء ، فوجه المصباح الى وجهه ، غير عابىء بلثامه المنزاح ، وتلاقت النظرات . خيل اليه انه عربي من فلسطين . كان يتوسل بصوته المحتضر .. ميه ... ميه . وأسرعت سلمى فرفعت رأسه ، وألقمته فم زمزميتها ، فجرع جرعة طويلة ، ووضعت سلمى زمزميتها في يده السليمة ، فابتسم اسماعيل ، وسأل الجريح :

ـ أنت عربي ؟

ـ ايوه ، يهودي اسرائيلي .

وكادت الحادثة ان تشبههما الحذر ، ولم يضيعا لحظة عندما رأيا نجدة قادمة ، سيارات وهيلوكوبتر . فعبرا النهر وأسرعا الى شاطىء الامان ، واختميا بصخرة ، ومضيا يسخران بجهود المطاردين .

ولكنه وجد الان بعد ان دب دبيب الحياة في أحشاء سلمى ، وقررا أن تجاز حتى تضع الوليد .

أكملت سلمى دراستها العليا ، وامتهنت التدريس ، وتعرف عليها وهو في أواخر مراحل دراسته ، وعشق كل منهما الآخر ، وحدثت النكسة فجأة ، ووجدا انهما في قبضة اسرائيل ، مع كل مواطنيهما، فتشاورا ، ورأيا أن لا مناص من رد الغازي بنفس السلاح ، بالقوة التي اغتصب بها بلديهما للمرة الثانية . فالتحقا بالمقاومة الفعالة ، بجيش الفدائيين ، وكانا ممن لا تطيب لهما الحياة اذا خلت من المثيرات . من ذلك النوع الصلب الذي لا يرتاح الا حين يحرق اكثر ما لديه من حيوية ليحس كيف تتوهج نفسه كالشهاب .

كانت ثقافتهما اوسع مما تستطيع ان تعطيه مقاعد الدراسة ومناهج التعليم . ويوم عزما على الزواج ، حضرا بالكوفية والعقال ، وبكامل أسلحتهما ، وعقد الزواج رئيس الوحدة خالد ، وكان الشهود من الرفاق الملثمين المدججين بالسلاح ، وكانت الوليمة من تجهيزات الوحدة . وعزف اسماعيل على شبابته مزيجا من ألحان مرحة وثائرة. ورقصت الوحدة كلها احتفاء بزواج فدائي بفدائية . وقال عبد الرحمن :

ـ ما أبدعه زواجا . على كل فلسطيني ان يتزوج هكذا . ولو كان في عجوزي بقية من قوة لحملت السلاح ، ولكنها مسؤولة عن ثلاثة فدائيين صغار .

فقال حمدون : ولماذا تسمي الصغار فدائيين ؟ ستحرر فلسطين قبل ان يكبروا .

فأجاب خالد : يوم حدث تقسيم فلسطين بين الصهاينة ، ومملكة الاردن ، كنت في العاشرة . ورأيت أبي ثائرا هائجا ، قال لي : « يا خالد ، انهم يتوهمون انهم قد مزقوا جثة ضحيتهم شطرين ، شطر لصهيون وشطر لملك عربي . ولكننا لم نمت . لم يفعلوا الا ان بصرونا بالحقيقة ، ووضعونا امام الامر الواقع ، ليس لنا الا ان نحمل السلاح لنحارب الاعداء الإباعد ، والاعداء الاقارب . ومن المحزن ان لبعض أقاربنا العرب طبيعة الذئب الذي يأكل اخاه اذا ما جرح وسالت دماؤه . أن الاعداء يحلمون بمحق شعب باكمله ، وما حدث ذلك في كل حقب التاريخ . تدرب يا خالد منذ اليوم على حمل السلاح » . ولكن أمي أجابته وهي بين الخوف والاعتذار : « انه صغير ، وقد تتحرر فلسطين قبل ان يكبر ، فما نحن في عهد الفراعنة أو الاشوريين » . فأجابها أبي بحدة : « قلة بصيرة منك

ما تقولين ، بل قلة عقل . الا فاعلمي يا أم خالد انك لا تستطيعين أن تعذري لحفيدك ابن خالد . اننا نعرف من نحارب ، ولماذا نحارب، وكيف نحارب . ان المجاهد الحق هو من يعتبر الجهاد حياته منذ الآن ، يجب ان يفنى فيه ، هو وأولاده وربما أحفاده ايضا . عليه ان يجعل الصراع لذته في الدنيا ، لا عملا يؤجر عليه ، واذا لم يكن كذلك ، فسيقبل الذل والاسر . لقد كان أجدادنا أحكم منا ، لقد كانوا يؤمنون بالجنة ، غاية المجاهد ، فاذا ما كنا قد فقدنا هذا الايمان ، فعلينا ان نختار بين الموت ، وبين حياة هي أمرّ من الموت . لقد أضحى رجالنا ، والحمد لله ، ممن تسكرهم المعارك . ولكنكن أنتن النساء لما تدركن ذلك » . فثارت أمي وأجابته : « ستحتاجون الينا يوما ، وحتى لحمل السلاح ، فما نحن بأقل غيرة ولا جرأة منكم » . فاحتضنها أبي مبتهجا ، وقبلها امامي ، متخليا عن وقاره التقليدي ، وهو يقول : « حقا انك أم خالد ، وسنرى أي بطل ستربين » .

وأتت الاوامر الى الوحدة ، وهم في احتفال عرس اسماعيل ، بأن يتوجهوا فورا الى نقطة معينة ، بعد عبور النهر ، لمهاجمة دورية مبتعدة عن قواعدها ، بمحاذاة الضفة الغربية ، وكانت الخطة محكمة، والاوامر واضحة ، وظهر الوحدة محمى عند الانسحاب . وكانت الغارة موفقة ، افناء قافلة من ثلاث سيارات ، ودورية قوامها خمسة عشر نفرا مع ضابطها . وفقدت الوحدة صنديدا من افرادها ، حملته عبر النهر ودفنته في الشاطىء الشرقي ، أبنه خالد ، وودعته الوحدة بلحن حزين على شبابة اسماعيل .

وتفرقت الوحدة للراحة ، واختلى اسماعيل بعروسه سلمى بعد المعركة ، في منتأى ، تحت ظل شجرة وارفة باتا تحتها ليلة الزفاف .

ها هو ذا تحت ظل الدوحة نفسها ، تلك التي ظللته ليلة عرسه ، وكانت فاتحة حياته في ذلك الكفاح الذي أصبح جزءا من كيانه . كان ذلك اليوم أعذب يوم من أيام حياته . ولكنه بعد ستة أشهر ، ويوم لاحظ ان بطن سلمى قد بدأ ينتفخ ، فاتحها مؤنبا :

ـ كيف هان عليك أن تكتمي عني الحقيقة يا سلمى ؟

ـ خشيت الفراق يا اسماعيل .

ـ ولكنك مسؤولة عن حياة فدائي ثانث ، وما دمنا قد استبدلنا لذاذات الحياة التي يشتهيها المترفون ، باخرى ، عطرها رائحة البارود ، وموسيقاها لعلعة الرشاش ، وطبولها هدير المدافع ، فلا يحق لنا ان نفكر براحتنا وبمسراتنا الذاتية . ان مجاهدا في طريقه الى النور ، وسيتبعه آخر لو بقيت على قيد الحياة . وعلام الخوف من الفراق ؟ سأكون قريبا منك . ولا تكران باني سأفتقد عونك عند الهجوم ، ولكنك ستكونين معي بروحك وحبك .

هكذا كان الامر ، يوم افترقا مضطرين . وكان آخر اجتماع لهما تحت الشجرة نفسها . وأجيزت سلمى ، وظل اسماعيل يأوي الى داره ، في المدينة القريبة ، عند الراحة من المعارك . وكان لقاؤهما لذيذا ، تتخلله عواصف مشبوبة من غرام حار ملتهب ، ولا غرو ، فقد اصبح افتراقهما ، مهما قصرت مدته ، كافيا لشحن بطاريات الشوق في كيانهما الى أقصى مداها ، وبقيا سعيدين .

ولكن الحالة قد تغيرت بعد حين ، وفي الجو ما ينذر بحدوث متاعب من طراز جديد ، ومهما قيل عن الحرب ، وجواز كل شيء فيها ، فما خطر بباله ان ينقلب الاخوان على اخوان . لقد وجهت المدفعية في مدن الاقارب والاخوان الى بيوت امثاله من الفدائيين وصاروا يصطادون في الشوارع ، كما تصطاد الذئاب . ذلك نصر للعدو دون شك ، ولكنه شيء مقرف ، مهين لروح النضال والبسالة في الانسان ، ومع انه لم يفاجأ بذلك ، الا انه ما كان يتصور ان يصل العداء الى حد الشراسة والهمجية في مطاردة الاخوان .

كانت مكتبة سلمى العامرة تسليته في اوقات فراغه ، وكانت سلمى اكثر منه دقة في أحكامها ، على فهم حقيقة ظروف وطنهما المزق ، وما اكثر ما خاضا في جدل حول أهم موضوع يشغلهما ، ويملأ كل حياتهما ، قالت له سلمى ذات يوم :

ـ اسماعيل . أرى اننا موفقون في الحاضر ، في كفاحنا . وأنت ترى كم ننزل بالعدو من خسائر . أو تكامل نضالنا ، لركع العدو واستجاب الى سلم مشرف . كما فعلت فرنسا مع الجزائر . الا اني أرى ان اسرائيل غير فرنسا ، وفلسطين غير الجزائر . فما رأيك ، مثلا ، بجيش البدو ، الذي يرافبنا عن كثب . انه يشبه الخنجر بيد حامله . وأخشى والله ان يدخل الخوف في قلب حامل الخنجر من انتصارنا ، ويتذكر ثأرا قديما .

ـ ليس ذلك رأيي فيه . انه محارب شجاع كما ترى ، وسيخوض الحرب معنا ببسالة ، ويمسح بشجاعته وانتصاراته ، العار القديم.

ولكن سلمى كانت أبعد نظرا منه ، ويا للاسف ، وهكذا قررا أن تهاجر سلمى الى بلد عربي آخر ، الى دمشق ، ضمانا لحياتها ولحياة الطفل القادم .

لقد مر على فراقه لالفه مدة تكفي لان يشعر بغصة عند ذكراها . وأخرج مزماره ، وبعد أن تأكد من سلامة الجو ، أطلق ألحانه الشجية وبث مزماره شكواه .

كان يشكو كل همومه لمزماره ، وكان يحاوره بالعزف : أخي لا يحمي عروسي ، بل قد كشف النقاب عن عدو ماكر شرس ، انه يروم مني مقتلا ، ولكن لا والله . ان هم الرجال فوق المحن . لقد توهم العالم اننا ركعنا فلا والله . ان من لا يعرف قلب الفدائي لا يفهم قلب المناضل . ان الضباع لا تشعر بما يدور في قلب أسد يدافع عن أشباله . فما عرفونا لا والله .

وقطعت عليه شكواه . شبح انسان قادم من بعيد .

فالتصق بالارض ، ومضى يترقب متحفزا ، ويده على الزناد . وما لبث أن سمع صفير التعارف ، فزال حذره ، وانتصب وأجاب ، وكان القادم خالد ..

ـ رسالة لك من سلمى .

وفتح الرسالة على الفور ومضى يقرأ . وضحك خالد وقال :

ـ انك تقرأ على ضوء القمر ، ما أشد شوقك الى أخبارها !

ـ هكذا عودتنا الحرب يا أبا طارق ، وسلمى واضحة الخط قويته . هنئني يا أبا طارق ، لقد رأى ابني وليد النور ، في دمشق ، لقد ولد فدائي جديد .

وتعانق الفدائيان ، وهنأ كل منهما صاحبه . واضاف خالد :

ـ أخشى ان يكون المولودون أقل من الفانين ، اننا نحارب على جبهتين .

ـ ولو حاربنا على ثلاثة ، فالمولودون اكثر من المفقودين . لقد انتشرنا في بقاع الارض ، من عربية وغير عربية . سيولد ابناؤنا وفي فمهم مرارة محرقة ، لا تزيلها غير مياه هذا النهر . بل وان لنا أنصارا بين اخواننا العرب . شبانا قد فارت دماؤهم فما عادوا يستطيعون اصطبارا . لقد أقرفتهم الاجتماعات والماحكات والمعاهدات والمؤتمرات ، بل وان في العالم من لا يستطيع ان يفهم المنطق المضحك، والحقائق المقلوبة ، فيثور وسينتصر لنا بافضل الايمان .

وتمدد خالد بجانب اسماعيل ، وشرع يدندن . وكان من عادته أن يترنم بما يحفظ من شعر العرب الاقدمين :

تخذتكم درعا حصينا لتدفعوا نبال العدا عني فكنتم نصالها

وصاحبه اسماعيل على شبابته .

العبـــور ..

تجمعت الوحدة نفسها ، وقد نقص عددها نقصانا ملحوظا . كانت أعصاب أفرادها متوترة ، ولم يستطع حتى الرئيس ان يحافظ عـلى هدوئه . كانت أصوات المدافع والرشاشات ودوي المتفجرات ، مـن الضفة الشرقية ، تقترب . وأخذ بعضهم يروي أخبارا عن قسـوة المطاردين ، فزيد من هياج أفراد الوحدة . قال قاسم :

ـ ويحهم ! نحن لا نجهز على جرحى الاعداء ، وهم يسحقـون جرحانا بالدبابات ، بل ويغرسون السناكي في أفواه الصرعى .

اسماعيل : أكاد لا أصدق هذه الاخبار ...

محمـود : وأخبار شنق رفاقنا ، ألا تصدقها ايضا ؟

خـالد : مهما كانت الحال ، فلنعلم اننا في حالة دفـاع ضد الاخوان ايضا .

فـؤاد : وما نستطيع ان نفعل ؟ انهم يزدادون اقترابا منـا ، فهل نعبر النهر الى العدو ؟ أم نقاوم حتى النهاية ؟ ان الاستسـلام للاخوان موت صريح .

اسماعيل : الاخوان من الشرق ، والاعداء من الغرب ، والنهر في الوسط ، وليس لنا والله الا الصبر على البلاء .

خالد : فلنر رأي القيادة . اتصل يا فؤاد بالقيادة .

ومضت دقائق ، واشتد دوي الاسلحة من الشرق ، وجاء الجواب « عبور النهر ، والاستسلام لاسر العدو » .

وهاج الافراد ، الا اسماعيل ، وتحولت نحوه الانظار ، كانـوا يحترمون ثقافته ويثقون بحكمته .

اسماعيل : وعلام الاعتراض ؟ انه قرار حكيم ، انه بصفـة في وجه الخيانة . وابقاء على حياة البقية . وفيمن بقي أمل في اعـادة الكرة ، وليس في الموت أمل .

وحدث شغب ، احتجاج واعتراض ، وبكى أحد الافراد ، فقال له الرئيس :

ـ نحن معك في مشاعرنا ، ولكن علينا الطاعة .

وسمع صليل سلاسل دبابات تقترب ، فأسرعت الوحدة فـدخلت النهر ، وعقد خالد على رشاشه منديلا أبيض ، وانفجرت قنبلة فـي نفس الموضع الذي تركوه . وتم العبور ، ووجدوا العدو في الانتظار ، وكأنه كان على موعد . وصاح صوت من صفوف العدو . الايدي فـوق الرؤوس . سلموا أسلحتهم . وقام جنـديان اسرائيليان بتفتيش المستسلمين . اختار كل واحد منهما أربعة . وشعر اسماعيل بالجندي يتحسس جيوبه برفق ، وأخرج من أحد جيوبه مزماره المحبوب وديوان شعر للوركا ، ثم أعاد ما أخرجه مبتسما ، وخيل لاسماعيل انه قد التقى بهذا الجندي . وبعد أن صعدوا الى سيـارتي الجيب ، التفت ذلك الجندي الى الاسرى ، ومد لهم علبة دخان :

ـ هل فيكم من يدخن ؟

قال اسماعيل : انا لا أدخن ، ولكن مهدي يدخن . تناول يا مهدي واحـدة ..

فرد مهدي مشمئزا : منه ؟ لا ... مطلقا .

الجندي (بنفس اللغة واللهجة) : ستأكل عندنا ايضا ، ولا اعتقد انك أتيت لتضرب عن الاكل حتى الموت ، فما فائدة استسلامك اذن ؟

وتناول مهدي لفافة من العلبة ، وقام اسماعيل بالشكر . وقـدم الجندي زجاجة كوكا كولا باردة لاسماعيل ـ ان كنت ظمآنا ؟ ـ وجـرع اسماعيل جرعة ، ثم قدم الباقي لرفاقه .

وقال اسماعيل للجندي : يخيل لي اني أعرفك ، فهل التقينـا من قبل ؟

ـ غريب ! ألا تتذكرني ؟ أنا من أسعفتني رفيقتك بالماء يوم نسفتم سيارتنـا .

فقال سعيد : نحن لا نجهز على الجرحى .

فقال الجندي : ولا نحن ، ولكن اخوانكم يفعلون ذلك .

واحتد مهدي واعترض : تلك اشاعات لا صحة لها .

الجندي : نحن نعرف كل شيء .

وقال فؤاد بالعبرية : يخيل الي ايها الجندي انك منـا ، لغتك ولهجتك وسحنتك .

وقهقه الجندي قائلا : أنا لا أحسن اللغة العبرية . انا من يهـود العراق واسمي يوسف زلخا . أنا أحسن العربية لغتي الام ، والانكليزية التي تعلمتها في مدارس العراق .

وراق لاسماعيل ان يقدم نفسه ورفاقه معرفا : اسماعيل يعقـوب من الفلسطينيين المسلمين . سعيد عيسى من مسيحيي الاردن . مهدي فالح من دروز لبنان . فؤاد مرعي من بدو الصحراء . ولكن هل لي ان اعلم ايها السيد يوسف متى هاجرت من العراق ولماذا ؟

ـ انا لم اهاجر باختياري ، بل نقلت بالطائرة مكتوف اليدين . كان ذلك قبل ثورة تموز . كنت من زمرة الشيوعيين ، وكنت منـاضلا عنيدا ، ماهرا في التملص من الاتهام ، ولم تجد الحكومة وسيـلة للتخلص مني الا بالقائي رغم انفي في طائرة ، كانت تقل طائفة مـن اليهود الذين أسقطوا عنهم جنسياتهم العراقية ، مختارين .

ـ وهل شيوعيتك تدعوك الى حمـل السلاح ، واغتصاب أرض الآخريـن ؟

ـ أنا مضطر لحمل السلاح ، ما دمت يهوديا في اسرائيل ، ولا خيار لي الآن . القتال او الموت .

ـ الاصح ان تقول الفتح واغتصاب بلاد الجيران أو الموت .

ـ هذا هو منطقكم . أما منطقنا فهو الانتصار أو الابادة .

ـ هذا يعني ان تبتلعوا دوما أرضا جديدة ، والا فنيتم .

ـ بل هنالك حل وسط ، ونرجو ان تطول مدته ، وأعني الهدنة .

فؤاد : شكرا أيها السيد يوسف ، لقد نورتنا . اذن فنحن نضرب من الوراء لاطالة مدة الهدنة ، وتحسين ظروفها .

يوسف (مبتسما) : لكم ان تتصوروا الامور حسب ظروفكم .

وسأل اسماعيل : وهل أنت مرتاح وسعيـد يا يوسف فـي أرض الميعـــاد ؟

وتنهد يوسف وأجاب : ان جنتي هي العراق ، حيث دجـلة والنخيل . كان أبي تاجرا موفور الرزق ، وكنا في بحبوحة مـن العيش ، حتى لحقتنا لعنة هتلر في العراق ، ورأى اغلب اليهـود العراقيين ، ان لا نجاة الا باسرائيل ، أما المثقفون منا فما كانت الحقائق تخفى عليهم .. كانوا يعلمون ان الاضطهاد مقصود لاجبار اليهـود على الهجرة ، واختارت هذه القلة المتعلمة طريق النضال السياسي ضـد الاضطهاد المحلي ، واحتضنتها الاحزاب الديمقراطية والاشتراكيـة والشيوعية ، ولكن تلك الاحزاب صرعت .

فؤاد : وهل تعود الى العراق لو انفرط عقد دولة اسرائيل ؟

ـ لو كان كل اسرائيلي على شاكلتي لانفرط العقد منذ زمن مديد. انك لا تجد من امثالي ما يتجاوز الالف عدا . ان الشعار السائد فـي اسرائيل « عـلى كل اسرائيلي ، ذكرا كان ام انثى ، ان يحـارب او يفنى » . نحن افراد ، والسياسة العليا لها القول الفصل .

اسماعيل : أعتقد ان من جملة موجهي السياسة العليا والداعيـن الى الحرب هو الجنرال دايان . ان عقله يستطيع ان يبعث في الحرب ديناميكية مستمرة ويغذي استمرار الدعوة اليها . وهو بذلك خطر على اسرائيل نفسها . كم يعجبني لو أقابله وأجادله ، وجها لوجه .

يوسف : أتقابله وتجادله حقا ، لو مهد الامر لك ؟

اسماعيل : بكل تأكيد .

ـ ربما استطعت ان اهيىء لك مقابلته ، ما دمت تبغي ذلك .

ـ سأكون لك من الشاكرين لو استطعت .

... وبعده

مر على الاستسلام أسبوع ، وكانت الوحدة المتقلصة المأسورة تتمتع بالراحة ، محجوزة في شبه سجن ، تعامل معاملة حسنة ، وقد وفر لها كل شيء ، الا الحرية . وكان ذلك السكون بعد حياة عنيفة مملوءة بالمخاطر كفيلا بان يولد السأم القاتل في النفوس ، وكان عزاؤهم وجودهم مجتمعين . كان خالد يخفف السأم بعتاباته ،وفؤاد بأغانيه، واسماعيل بشبابته .

جلس الرفاق بعد الغداء ذات يوم ، وخيم عليهم صمت محزن قطعه فؤاد بعتابة محلية ، وشارك الجمع ، وشبابة اسماعيل ، في كورس غنائي عذب ، ولم ينتبهوا الى وجود الحارس ويوسف الا بعد انتهاء القطعة .

قال اسماعيل : مرحبا يوسف ، هل جذبك النغم ؟

ـ انا من عشاق هذه الالحان . كان يهود العراق طليعة هذا الفن فيه . ولكني أتيت لاعلمك بانك مدعو الى مقابلة الجنرال دايان هذا المساء .

خالد : ولكن التحقيق معنا قد انتهى ، وعلمت السلطات كل ما يمكن ان نبوح به .

اسماعيل : شكرا يا يوسف ، ايها الاخوان ، لقد كنت اتوق الى حديثمع موشى دايان ، حديث محارب الى محارب ، فهل ثمة اعتراض؟

ـ نحن لا نشك فيك ايها الاخ اسماعيل ، وسنعلم ما دار بينكما وارجو ان توفق في حرب الكلام ، كما كنت موفقا في حرب السلاح .

كانت المقابلة في صالة مستطيلة واسعة فخمة التاثيث ، تحتل احد ضلعيها الطويلين مكتبة ، وقرا عناوين ثلاثة كتب مجلدة تجليدا جميلا ، وهو يختطف لمحة الى تلك المكتبة ـ القرآن والانجيل والتوراة ـ واحتلت الضلع الصغير خارطة ملأت الجدار ، خارطة البلاد العربية كلها ، لاحت اسرائيل بينها بقعة تافهة . وكان الضلع المقابل للمكتبة من زجاج ، يبدي المنظر الساحر وراءه . المرتفعات الخضراء ، والبساتين ، والبحر . سحر المنظر اسماعيل فتنهد ، وابصر دايان في لباس عسكري بسيط ، يمد له يده مصافحا ، وهو يقول بلهجة محلية :

ـ اهلا اسماعيل ، كيف حالك ؟

ـ بخير ، وشكرا ايها الجنرال على تكرمك بهذه المقابلة .

ـ اراك مهتما بالمكتبة ، وما يقابلها من مناظر جميلة .

ـ لفتت نظري الكتب السماوية الثلاثة بالعربية ، ولا أشك انك قرأتها ايها الجنرال موسى .

ـ رعايانا يدينون بهذه الاديان الثلاثة ، فيتوجب علينا ان ندرس دياناتهم . ولكن لم تسميني موسى ؟ انا موشى دايان !

ـ فعلت ذلك على طريقة القرآن . ان الرعية الحقيقية التي تعنيها هم اليهود ، اما الباقون فهم مستعمرون ، لا حقوق مدنية لهم ، ولو ساويتم بين الرعايا لخرجت السلطة من ايديكم . فانتم ما زلتم أقلية . وخصوصا بعد النكسة . اما المنظر الساحر فهو من مناظر بلادي الجميلة ، وانى لاحبها لهذا السبب .

ـ انها بلادي ايضا ، فان شئت الاقامة فاهلا بك .

ـ انت طارىء ايها الجنرال ، وانا اصيل .

ـ بل انت الطارىء . ان اسلافي عاشوا هنا منذ آلاف السنين .

ـ لا يا سيدي الجنرال ، ان اجدادك عاشوا في بقاع اوروبا المختلفة الوف السنين ، اما اذا كنت تعني العبرانيين ، او من تسمونهم الان بالاسرائيليين فالتوراة نفسها تشهد بان اصولهم قدمت من بلاد الرافدين . لقد كان ابراهيم رئيس قبيلة من الرعاة ، لم تعجبها ديانة سكان ما بين النهرين واضطرت الى الهجرة بمواشيها ، الى بقاع اجدادي الكنعانيين ، كانت قبيلة ابراهيم مسكينة مسالمة وكان اجدادي رحماء ، يرحبون بالضيف . وتكاثرت القبيلة ، وهاجرت الى مصر وطردت منها ، وصارت لا تستقر ، كل يوم في بلد ، كانت تلك القبائل في حلها وترحالها خاضعة لعنعنات قبلية تتعصب لها ، وتمنعها من الانصهار في الامم التي تحل بين ظهرانيها . كانت كالبدو تتباهى بالاجداد ، والاحباب والانسان وبالسيف والحصان . وكانت انانيتها المركزة تثير العداء عليها دائما ، فتنقلت كثيرا ولم تستقر في بقعة واحدة . لقد سبيت مرارا ، ولم تسكن فلسطين الا عشر معشار تاريخها .

ـ ما اختلفنا . لقد نبعنا من بلاد عربية ، كما قلت ، وتنقلنا في بقاع بلاد العرب وانت ممن يؤمنون بالوحدة العربية كما اظن . اذن فلنا حق في هذه البلاد .

ـ افهم من كلامك ايها الجنرال انكم ستغزون بقية البلاد العربية، العراق ومصر وسوريا ولبنان ، بنفس الحجة وعين المنطق ؟

ـ نحن لا نغزو . اننا نريد ان نعمر ونعيش بسلام . ولكنكم تهددوننا بالافناء . وانت وامثالك تخربون الان ما نعمره من بلادنا .

ـ كان ابي يملك بستانا للبرتقال استطيع ان ادلك عليه ، فهل تدلني على بقعة الارض التي خلفها لك ابوك ، بل وجدك الاول بل وحتى العاشر ؟ فهل تكون محقا بتسمية الارض بلادك اكثر مني ؟ لقد اغتصبت املاكنا اغتصابا لا يخضع لغير قانون الغاب . وطردت العائلة كلها . فكيف تريد منا ان نتعامل مع المغتصب .

ـ حدث ذلك لانكم لم تقبلوا بالتعاون معنا .

ـ اي تعاون تقصد ، لقد تجمعتم من بقاع الارض : واتيتم فاغتصبتم ارض اناس عاشوا فيها الوف السنين ، بحجة اسطورية . لقد وطدتم اول قدم لكم بمعونة مستعمر ، وبمعونة سلاح هذا المستعمر سميتم انفسكم دولة . اني اناشدك كرجل مثقف ان تصدقني . اتؤمن حقا بالمنطق الذي جعل لكم حقا في اقامة دولة هنا ؟

ـ اني اؤمن بهذا الحق . فالارض ارض الميعاد . ارض اليهود الذين اضطهدوا في كل بقاع الارض خلال حقب التاريخ . لقد ظلوا يحلمون بالوطن الضائع حتى استطاعوا تحقيق هذا الحلم ، وبذلك نجوا من الاضطهاد السرمدي .

ولكنكم تغيرتم . لو كان منطقك صحيحا ، لاصبحتم ملايين كثيرة في العالم ، لا هذا النزر اليسير . ان العالم الذي اتيتم منه قد امتص اخياركم ، ولم يلفظ الا النزر المتعصب ، الذي زاده الاضطهاد تمسكا بخرافة المومياء الاسرائيلية . ان اسرائيل مومياء ايها الجنرال ، ولا يمكن اعادة مومياء الى الحياة .

ـ يضحكني منطقك . تسمي دولة ، لا تبلغ عشر معشاركم ، انتصرت عليكم عدة مرات مومياء ؟

ـ لقد انتصرتم على افكار مومياية ، لا علينا،وما حاربتم العربي الاصيل وجها لوجه حتى الان .لقد حاربتم سياسات مخدوعة ، كليلة النظر . ويوم تقابلون المحارب العربي الحر ، ستجدون للحرب طعما آخر ؟

ـ ان العربي الذي تتصوره في عالم الخيال ، اما نحن فحقيقة .

ـ بل هو حقيقة ، وانا جزء من هذه الحقيقة ، اتحدث اليك بصراحة .

وضحك الجنرال وعاد يقول ـ لقد استسلم بعضكم ، والبقية في الطريق .

ـ لم نستسلم ، بل وقعنا في الاسر ، وهذا شيء غير مستنكر في الحرب . ان ما استسلم منا قليل ولكن قوتنا الرئيسية لم يعترها وهن ، بل ان عددنا في تكاثر ، وصلاتنا تشتد يوما بعد يوم . انك لا تفكر كيف دوخناكم حتى التجأتم الى محاولة ضربنا من الخلف .

اننا سنفتح عليكم جبهات في عقر دوركم .

ـ عربي يتحمس ويتباهى بزيادة العدد ـ اتساع الجبهات . ذلك يسليني حقا .

ـ لقد ولد لي طفل سيكون فدائيا ، كما كانت امه ، التي اغاثت جنديا جريحا منكم ، واذا قتلت انا فعليها ان تتزوج لتنجب فدائيا اخر ، واخر سنتكاثر في مخيمات اللاجئين ، وفي المدن المحتلة ، وفي البلاد العربية ، بل وفي كل اطراف العالم واننا نلمس مأساتنا لمسا ، والفرق بيننا وبينكم ، هو انكم اسطورة في احلامكم اما نحن فحقيقة واقعة . اننا سنزداد عددا وفعالية ومجالا ، كلما اغتصبتم ارضا جديدة .

ـ او ليس من اضطركم الى الاستسلام الينا حقيقة واقعة ؟

انه فرد متهافت ، وقد يرجع عن غيه ، والا فسيغرق في بحر الاحتقار ، حتى يمتلىء جوفه منه . انه ومن على شاكلته من افراد ، يحاولون النجاة بعقدهم ، بالقفز في جوف بركان .

ـ اظنك تعني بركانا من البراكين التي تتفجر كل يوم في البلاد العربية فتزلزلها وتفتح لنا طرقا جديدة .

ـ ان هذه الانفجارات غير مدمرة لكيان مجتمعاتنا . انها مظهر من مظاهر الحياة ، وشدة شعور الجسم بالخطر الكامن . انها وثبات للتقدم واستكمال الكفاءة للنضال .

ـ تقدمكم هذا هو ارتماء في احضان الشيوعية . انكم تستعملون سموما للشفاء بدلا من الدواء الصحيح .

ـ نحن لا نرتمي في احضان احد ، لسنا متكلين مثلكم على سلاح اميركا ومالها بل ورجالها . ان الاشتراكية احسن علاج للتأخر واسرعه. اننا نتناول دواءنا من صيدلية طلائع العالم . انكم انتم ايضا تلتجئون الى الاشتراكية لتوفروا كل طاقاتكم للاعتداء واذا كان لنا ان نشكر المعتدي ، فسنشكركم على ازاحة العصابة عن اعيننا ، ودفعنا الى فهم اسباب تأخرنا ، والقضاء على التعصب الجاهل ، ضد احدث الانظمة العالمية .

ـ لست معك في هذا الرأي . انكم ستبقون بدوا في اخلاقكم ونزعاتكم ، وفي تعاملكم بعضا لبعض .

ـ اعتقد ان استخباراتك لا تغشك ايها الجنرال . انك لا تجهل سرعة التقدم عندنا . ان الجامعات قد ازدهرت حتى في قلب الصحراء. ان المجلات العربية التي اراها على هذه الطاولة تريك ناحية من تقدمنا. اما البدو الذين عنيتهم ففي تقلص . ان الاعراب الذين هم اشد كفرا ونفاقا ، كما قال عنهم القرآن ، فستبتلعهم الحضارات التي تكتسح البلاد العربية ، التي تنتشر انتشارا النار في الهشيم .

ودق الجنرال جرسا وقال لاسماعيل :

ـ ما رأيك في تناول بعض السندويجات مع كاس من الوسكي ؟ ام لعلك تستنكف ؟

ـ شكرا على حسن ضيافتك ، ولست من شعب الله المختار لاستنكف .

وطلب الجنرال الوسكي وما يؤكل معه :

ـ ان قرآنكم قد قال عنا « انا فضلناكم على العالمين » . ومع ذلك فلا نرى في قومنا رأي هتلر في قومه .

ـ لقد اقتبس ذلك منكم ، وحاربكم بنفس سلاحكم ، وها انتم تتناولون السلاح بعد ان سقط من يده .

ـ الا ترى انك تعتدي عليّ بتشبيهي بهتلر وتشبيهنا بالنازيين؟

ـ لقد كنت اشد اعداء هتلر ، وكنت انتصر لكم يوم اراد ابادتكم. انا ضد كل معتد .

ـ انا لا اشك في انك تحتل مرتبة كبيرة بين الفدائيين ، وارى اني احدث ندا .

ـ مطلقا ايها الجنرال . انا نفر من اصغر الفدائيين رتبة .

ـ انك لا تستطيع خداعي . اتدعي ان الفدائيين جميعا على شاكلتك ثقافة واطلاعا .

ـ لا ، ولكن بعضهم اوسع مني ثقافة ، ومن هم دوني في ذلك اكفا مني عند الصدام .

ودخل النادل ومعه ما طلب من وسكي وثلج وسندويجات كثيرة .

وقام الجنرال بالخدمة ، وقدم كاسا لاسماعيل وقال :

ـ فلنشرب نخب نصرنا ، نصري الواقع ، ونصرك الحلم .

ـ اذن نخب النصر ، نصرك الذي يلهب نارا ، ونصري الذي ينشر السلام .

ـ آه .. السلام بالقضاء على اسرائيل ، ورميها في البحر . خبرني كيف تستطيعون رمي اكثر من مليوني نفس في البحر ؟

ـ ليس ثمة مجرفة تستطيع جرف مثل هذا العدد !؟

ـ اذن يسرني ان اعلم ما تصنعون بنا لو انتصرتم علينا ؟

ـ سنترك الحرية لكل فرد ليعود الى وطنه ، اذا اراد ، وسيبقى الاخرون مواطنين صالحين ، يتمتعون بحكم ديمقراطي ، وحرية ما حلم بها العرب تحت حكمكم .

ـ واذا بقي الجميع ؟

ـ لا مانع . سنكون جمهورية فلسطين الديمقراطية . وسيكون لهم مجال كبير في تطوير البلاد العربية ، وستخفف احلامهم في الرفاه والراحة والانعتاق .

ـ ولكن لماذا لا يكون الاسم جمهورية اسرائيل الديمقراطية ؟ لم التعصب ضد هذه الكلمة ؟

ـ ولماذا هذا الاصرار على ان تحمل الجمهورية اسما دينيا ، دون العالم كله ؟ اسما لدين رعاة ابتدائيين يحاولون احياء اساطير بالية ، ولغة منقرضة ؟ ان الكلمة تحمل تعصبا وانانية لا محل لهما في عصر السماحة والحرية ، والحلم بتوحيد العالم . تذكر يا موسى ماذا فعلتم بعيسى حين اراد ان يطور اليهودية ، فيجعلها ديانة عالمية راقية ، ويخرجها من قوقعة الانانية والسذاجة البدائية . ولكن ما كانت النتيجة ؟ ان مئات تدين برسالته . اما انتم فقد بقيتم كما كنتم حفنة من البشر .

اما العبرية فعربية ابتدائية ، تأمل التشابه بين الكلمتين ، فلماذا تتعصب للهمجي ضد المتحضر ؟

ـ لو كنت متعصبا للدين لاغضبني كلامك .

ـ ذلك لانك لست يهوديا يا جنرال موسى .

ـ مفاجأة جديدة في حديثك الغريب ، وكيف ذلك ؟

ـ لو كنتم يهودا حقا لقضى عليكم العرب في هجوم مفاجىء يوم السبت .

ـ ولكن الدين لا يطلب منا الانتحار لان السبت مقدس (وقهقه الجنرال مرحا) .

ـ اني اسالك مخلصا ، اتؤمن بتعاليم موسى ؟ ان المسيحي والمسلم لا يخرجان على تعاليم دينهما ، لو اتبعا قواعد الحياة العصرية ، ولكن اليهودية تتنافى مع العصر اطلاقا ، انت تعلم حكم الزانية عندكم ، وانت لا تجهل كيف تعيش النساء في كبوتزاتكم ، التي هي معامل تفريخ لفرض الحرب . انكم تطلقون على مؤسساتكم اسماء دينية وحسب ، لتخدعوا العالم ، وتخدعوا المتعصبين من اتباع ديانتكم .

ـ اذا سلمنا بما تقول ، فهل اذا اطلقنا على حكومتنا جمهورية فلسطين ، رميتم السلاح وانضممتم الينا ؟

ـ اما ان نلقي السلاح فنهم ، ونرجع الى اوطاننا ، لا ننضم اليكم ، ونكون معا جمهورية عربية ، لا عبرية ، ولكم الخيار اذا صرتم على احياء هذه اللغة الاثرية ، ولربما كنا معا جزءا من اتحاد فدرالي عربي واسع .

ـ ونكون اقلية ، وتعودون الى اضطهادنا .

ـ لم يضطهدكم العرب ، ولا المسلمون قط ، ومكتبتك هذه شاهدة على ذلك . لقد كنتم عونا للعرب في فتوحاتكم ، وخدمتموهم باخلاص ، وما فكرتم بتأسيس اسرائيل الا بسبب اضطهاد اوروبا لكم لا للعرب . لقد جمعتم اقواما مختلفة ذوي لغات مختلفة وانتم تحاولون صهر ذلك في سبيكة واحدة ، كمن يحاول صهر الحديد والفحم معا .

ـ ان هذا الاضطهاد العالمي هو اقوى رابطة لتكوين هذه السبيكة .

ـ انكم ايها الجنرال تقعون في خطأ اعظم ، فبدلا من اطفاء نار الاضطهاد في محلها ، اتيتم لتضطهدوا اناسا لم يؤذونكم، وتكيلوا لهم من العذاب اضعاف ما كيل لكم ، الا ترون انكم تؤججون نار حقد في قلوب ملايين لا تحصى من عرب ومسلمين بسلوككم هذا ؟ الا ترى انكم لو اصررتم على هذا العدوان ، فستعرضون انفسكم لابادة جماعية ، او لسبي جديد ؟

ـ هو ذا انت تعود الى المبالغة بالتهديد ، مبالغة البدوي في شعر الحماسة ، تتباهى بالملايين ، وتهدد بالسبي والابادة ، متجاهلا ان التقنية الحديثة قد اوجدت مبيدات للنمل والحشرات ، وللبشر ايضا .

ـ آه .. عقدة شمشون . انك تلوح بالقنابل النووية « عليّ وعلى اعدائي يا رب » اما عليكم جميعا فنعم ، وسوف لا ينال السقف الا جزءا يسيرا من اعدائكم، يعوضونه بكثرة العدد وبتجاوز شروط ضبط النسل لمدة وجيزة .

ـ انت واسع الخيال ايها الفدائي اسماعيل . لقد انتصرنا على طول الخط وسننتصر في المستقبل ايضا ، وكلما ازمعتم حربا ، كنا البادئين بخطفةتفقدكم جزءا كبيرا من بلادكم، تضعف معنوياتكم ،وتقلل من احترام العالم لكم .

ـ لقد علمتنا حروبكم دروسا ايها الجنرال . كان من الخطأ مهادنتكم ،وما فعل العرب ذلك بل رؤساء وملوك كانوا يتعاملون معكم ومع انصاركم من وراء ظهورنا . وقد نسف هؤلاء .

ـ وبعد ان نسفوا خسرتم اضعاف ما خسرتم اولا ،وبمدة اقصر، لقد كان هؤلاء المنسوفون ، ومن يحميهم ، حمائكم ضد توسعاتنا، وبعد زوالهم ، اصبحنا اكثر اقتدارا .

ـ تعني النكسة ، اليس كذلك ، لا بأس ،لقد كانت غلطة في نظري ان توقف الحرب ، لقد كنتم انتم تريدون ايقافها ، تصور ما يكون موقفكم لو مضى العرب في الحرب ؟

ـ كنا نمضي فيكم كالسكين الحارة في كتلة من الزبدة .

ـ والى اين تمضون ؟

ـ الى دمشق .. الى القاهرة ، الى بغداد ، وربما الى ابعد من ذلك .

ـ وتكونوا قد وقعتم في المصيدة . تصور ايها الجنرال جيش امة لا تتعدى المليونين تفتح اقطارا تعدادها مائة مليون . قد هاج كل فرد فيها حتى اصبح يرى الموت عذبا في الدفاع ، وملايين المسلمين في اقطار العالم ترى مناسكها المقدسة قد اهينت اشد الهوان . والدول الاخرى تنتبه الى خطر يشبه خطر المغول الذين ما عرفوا نظاما ولا قانونا انسانيا ، في الفتح والفتك .

ورأى اسماعيل ، مسرورا ، عيني ديان المعصوبة والمفتوحة ، تتحركان بانفعال فعاد يقول :

ـ لن توقف الحرب في المستقبل في اللحظة التي تريدونها ايها الجنرال . بل انكم لا تريدون الحرب الان . لانكم ما زلتم غاصين باللقمة الكبيرة .

ـ بل هضمناها ، ووجودك هنا برهان على ذلك . ونحن مستعدون للقمة اخرى .

ـ قد تحشرون في افواهكم لقمة اخرى ، مضطرين ، وتحسبونها نصرا لكم ، ولكن لا هدنة بعد الان . وحجة العرب واضحة مشروعة .

اما حجتكم فستتنسف هباء . لقد ادركت الدنيا كلها انكم تريدون التوسع ، ولكنكم تستهينون بالعالم كله ومنطقكم القوة ، او نسيتم مصير عدوكم هتلر ؟ انكم تتشبثون بمنطق الحدود الآمنة ، وستحولون هذه الحدود ، اذا ما انتصرتم في جولة اخرى ، الى النيل والفرات .

ـ واري اننا سننتصر .

ـ لو حدث ذلك لهلكتم . انها مهزلة لم يسبق لها مثيل حتى في عصر التوحش والهجمية .

انه منطق يأباه العقل السليم ، سردينة تريد ابتلاع حوت .

ـ بل سمكة السيف تطعن هذا الحوت .

ـ الطعنة لا تقتل الحوت ، سيدخل سيف السمكة في شحم الحوت السميك فيطبق فمها ، ويمضي الحوت غير عابىء بها حتى تموت جوعا ، وتتعفن وهي معلقة بجلده .

ـ ان الكثرة ووسعة الرقعة ، لا تعنيان شيئا . لقد احتل الاوروبيون الاميركتين وابادوا سكانها تقريبا .

ـ لا تغالط ايها الجنرال موسى . انك تعلم الفارق . لسنا همجا كالهنود الحمر ، وحضارتنا السابقة قد لعبت دورا في العالم . ومن انتم ؟ هل انتم اوروبا ؟ لا ، اين مركزكم في حضارة العالم ؟ انكم مومياء متكبرة .

ـ هل نسيت ماركس وانشتين وفرويد وغيرهم ، انك هي حضارتنا .

ـ ولماذا نسيت يسوع، وموشى مانوهيم ، وابنه يهودى الموسيقار الاكبر . ان من ذكرت وذكرت واضرابهم قد خرج من الشرنقة ، وادرك انه فرد في عالم واسع متسام ، لا ذرات في رفات مومياء . لقد ادوا خدماتهم للعالم كله ، لا لاسرائيل . هم جزء من حضارة متنامية متكاملة . وما كان انشتين ليهون عليه ترك المانيا لولا حماقات هتلر .

انكم تستطيعون تسخير اصحاب رؤوس الاموال من اليهود ، ذوي العقول الفارغة ، ولكنكم لا تستطيعون ان تسيطروا على ذوي العقول الجبارة ، فهم ملك للعالم .

كانت كلما اسماعيل الاخيرة حادة رنانة شديدة الوقع ، ساد بعدها سكون . وتلهى الجنرال بان تناول كأسه ليداري حرجه وحث اسماعيل على ان يجاريه ، وعاد الجنرال ففير الموضوع ، وقال لاسماعيل :

ـ سمعت انك تعزف على القصبة ، الحانا امتدحها الحراس ، فهل يروق لك ان تعزف نغمة واخرج اسماعيل شبابته فوضعها بين شفتيه ، وحرك اصابعه على الثقوب وعزف مدة تقرب من خمس دقائق . وكان ديان يصغي معجبا . وقال بعد ذلك :

ـ احسنت ، ما كنت اعتقد ان قصبة تستطيع اداء قطعة من فديليو بيتهوفن .

ـ انه اللحن الذي يمثل الحبيبة المتنكرة بزي الغلام فديليو حين تزور حبيبها سجين الظلم .

وقام ديان مختتما ذلك اللقاء العجيب ، وهو يقول :

ـ كم يروق لي ان اطلقك من الاسر ، لترجع الى جماعتك الفدائيين ، وتستخدم عقلك وثقافتك ، لردعهم عن تخريب ما نعمر ، وننشر السلام بدل الحرب ، قبل فوات الاوان .

السلم في ايديكم . انما نحن مدافعون عن بيوتنا واقواتنا وحياتنا. فانتم القادرون على نشر السلام ، بكفكم عن الاعتداء ، وارجاع الحق الى نصابه ، وارجو ان تدركوا ذلك قبل فوات الاوان .

هكذا انتهت مقابلة غريبة بين فرد فدائي واكبر جنرال في اسرائيل وقال الجنرال لضابط الحرس بعد ذهاب اسماعيل :

ـ حذار من ترك الفدائيين المسجونين يختلطون بمواطنينا ، وبالعرب منهم بصورة خاصة .

ذوالنون ايوب